على ثلوج (حَزْرين)

للأستاذ على الطنطاوى

قال لى صديق :

خطر لى من سنوات أن أرى لبنان فى الشتاء ، ولبنان فى الشتاء له فتنة الراهبة الصبوح بجلبابها الأبيض الذى لا يبدى من جمالها إلا قليلا يثير الرغبة فى الكثير ، كالجرعة من الكأس لا تبل الصدى ولكن تزيد العطش ، والفصل من الرواية لا يغنيك عنها ، ولكن يشوقك إليها ، فرحلت بالسيارة مع جماعة من الإخوان من بيروت إلى عاليه ، حتى إذا بلغناها ، تركنا الطريق المعبد الذى يمر على بحمدون وصوفر ، وصعدنا فى الجبل ، نمشى على غير طريق ، وكان الصعود أول النهار سهلا ؛ وكنا أقوياء أولى نشاط ، فما قارب المساء وجاوزنا قرية (حزرين) حتى توعرت السبل ، وتبددت القوى ، وتشابهت المسالك ، فلم نعد نرى من حولنا على مدّ البصر إلا ذرى متعممة بالسحاب ، وتلالا مكسوّة بالثلج ، تبدو القرى فى سفوحها البعيدة ، وكأن بيوتها المتفرقة بمداخنها ، بواخر تمخر العباب ، فجعلنا نفتش عن طريق نعود منه ، فلم نجد إلا ثلجاً منبسطاً ، يخفى السبل ويغطى الأرض ، فلا تتبين مواضع الهُوى لنتجنبها ، ولا ترى الحفر لنحيد عنها ، فلم تكن تمر لحظة حتى نقع فى حفرة ، أو نقدم على السقوط فى هوّة ، فآثرنا التفرق علّ واحداً منا يرى منزلا فيدل عليه إخوانه ، وأظلم الليل ، وانفردت فى مهامه الجبل ، واختلطت علىّ الأرض بالسماء ، والتقى الثلج بالسحاب ، وهبت الرياح متجمدة من القرّ ، كأنها البارد الخشنة ، تحمل بَرَداً ثقيلا جعل يساقط على وجهى ، كالرصاص المندفع من الرشاشات

وألهب الخوف أعصابى وإن كاد البرد يجمد أطرافى ، وصوّر لى الوهم أشباحاً مرعبة تحيط بى ، فكنت أعدو هارباً منها حتى تكلّ قواى ، فأقف لأستريح قليلا ، فأحسّ كأن جنياً جباراً يسوقنى فأعود إلى العدو ... وطال المسير وطال الليل ، وتهت فما أهتدى إلى منزل ، وتاه الفجر فما يهتدى إلى مطلع ، ونفدت قواى وحطمنى الجهد ، فتمنيت الموت وعزمت عليه ، وجعلت

شراء نسخ كثيرة يتداولها القراء ، ويتخذوا من التعاون بينهم سبيلا إلى الاطلاع الذى لا سبيل إليه للآحاد المتفرقين

ويتخيل القارىء ما يكون لو أجيبت الأندية إلى طلبها العجيب من المؤلفين

فقد تنعم المدينة لعشرات من الأندية يؤمها أعضاؤها الذين يعرفون تأسيس الأندية والاجتماع فيها ، وهم على الأغلب من طبقات المثقفين والكفيين ، ان لم يكونوا من طبقة الموسرين والأغنياء

وقد يبلغ هؤلاء الأعضاء عدة مئات أو عدة ألوف ، وقد يعم الطلب من المدن كلها لا من مدينة واحدة أو مدينتين . فإذا استوفى هؤلاء أو بعض هؤلاء قراءة الكتب بثمن فمن الذى يشترى الكتاب ، وعلى من يعول المؤلفون والناشرون ! ولماذا يأبى النادى على مشتركيه أن يطلبوا المرطبات بثمن وأن يلبسوا الملابس بثمن وأن يولموا الولائم بثمن ويستثنى الكتب وحدها من هذه القاعدة فيجعلها تبرعاً مباحاً لا يدخل فى الحساب !

إن الاستثناء الوحيد الذى يجوز فى هذه الحالة هو استثناء الأندية الخيرية التى يختلف إليها فقراء الشعب للقراءة وسماع المحاضرات ، ولكن العبء الأكبر فى هذا الاستثناء ينبغى أن يحال على ذوى الأموال قبل أن يحال على ذوى الأقلام ، لأن ذوى الأقلام ينهضون بعبء الفكر ويحتاجون إلى من ينهض بأعباء معيشتهم فى كثير من الأحوال

* * *

هذه تجربة التأليف ، وليست هى بأعجب التجارب ولا بأحوجها إلى التدبر والملاحظة ، ولكنها شىء من أشياء ، قد نعرضها « شيئاً فشيئاً » على شركاء المؤلفين فى مهمة الثقافة والاطلاع ، وهم جمهرة القراء .

عباسى محمود العقاد

أفتش عن واد أتردّى فيه ، فرأيت من بعيد نوراً خافتاً ، يحاول أن يخترق حجب الظلام ، فيعجز ويرتجف كأنه مقرور مشلى يتضقض عظامه القرّ ، وأعصابه من التوتر والفزع كالأسلاك المحماة بالنار ، أو كأنه خائف مثلي من الوحدة في هذه الأعالي الموحشة فهو يرتجف من الخوف ، فأسرعت إليه إسراع المشرف على الغرق في اللجة الهائجة إلى السفينة النجية يرى ضوءها ، أو إلى الشاطىء الآمن يبصر مناره ، وهبطت وادياً كأنما تعزف فيه الشياطين من أصوات رياحه ، ثم صعدت جبلا كأنه من استوائه صرح قائم ، حتى وصلت إلى النور ، فإذا بيني وبينه سور كأنه كان يوماً ... سور حديقة ، فعالجت بابه لأفتحه فإذا هو صدىء المفاصل كأنه لم يفتح من دهور ، فخططت عليه بمنكبي ، ودفعته دفعة الآيس ، فصرّ صريراً مخيفاً ، رددته هاتيك البطاح ، فكان له مائة صدى انبعثت كلها معاً ثم حملتها الرياح إلى بطون الأودية ، وعاد السكون ، فولجت أحسب أن الرحمة في باطن الباب ، الذي كان في ظاهره العذاب ، وإذا أنا بشبح أسود يثب إلى وجهي ، ويتعلق بي ، وله صوت لم يقع في أذني أفظع منه ، فنظرت إليه وقد شل الفزع أعضائي ، وسمّرت قدماي بالأرض ، فإذا هو كلب ضار ، يهم بأن ينشب فيّ مثل أنياب الذئب الكاسر ، فتبلد حسي واستسلمت للقضاء ، وتوقعت الشر ... ولكني رأيت الكلب يدعني ويبتعد عني ، قد دعاه صوت من داخل البيت فانصرف إليه مزمجراً ثم أقعى غير بعيد . ومشيت إلى البيت فدخلت إلى ردهة دافئة ، فيها كهل وامرأة وشيخان عجوزان ، فسلمت فلم يردّ أحد منهم ، ولبثوا يحدقون فيّ جميعاً بعيون فيها الدهشة والبغضاء ، شاخصة لا تطرف ، كأنهم يرون فيّ مخلوقاً عجيباً انشقت عنه الأرض ، فلما طال ذلك منهم ، ملكتني الحيرة وأخذني من الخوف ما لم يأخذني وأنا معلق بين السماء والأرض ، لأنه لا أعرف لي متجهاً ، وهممت بالفرار ثم خفت أن يلحقني الكلب ، وذكرت الكلب فنظرت إليه فإذا هو رابض يزمجر يريد أن يثب عليّ فيكفّه الكهل بقدمه ، وتجلدت فقلت لهم :

— أنا غريب ضل في هذه الجبال حتى وقع عليكم ، وأنا أعتذر أن أزعجتكم ، وأرجو أن تمنوا عليّ بقدح شاي أطفىء به حر جوفي الذي ألهبه الخوف ، وأدفىء به أطرافي التي جمّدها البرد .

فنظرت المرأة إلى الكهل نظرة لمحت فيها خليطاً من الحب والبغض ، والشفقة والرهبة ، ولبثت لحظة متسائلة ، فهز رأسه كالموافق ، فقامت تعدّ الشاي ، وألقيت بنفسي على مقعد قريب من النار ، وجعلت أسارق القوم النظر ، فأرى الكهل قوياً متين البناء ، لم يجاوز الخمسين ، ولكن الهم الذي تبدو عليه ظواهره قد شيّخه قبل أوان الشيوخة[1] ، وأرى المرأة في نحو الأربعين ، ذات جمال وادع قد حجبه ستار من الكآبة والغم ، فهو يضيء من ورائه كما تضيء الحلية النفيسة من تحت الغبار المتراكم ، وجاءت بالشاي فشعرت وأنا أشربه أنه يمشي في عروقي كما يمشي الريّ في النبتة الذاوية تسقيها الماء . ثم قلت لهم : هل تأذنون لي أن أرقد ما بقي من الليلة على هذا الكرسي ؟

فقال الكهل بيده أن لا ، وأشار إلى الخادم الشيخ ، فسلك بي ممرات وجاز أبواباً كأنها ممرات قصر كبير ، لا كوخ منقطع في رأس جبل لا يبلغه جنّ ولا بشر ، حتى دخل بي بهواً فسيح الجوانب ، تفوح منه رائحة القدم والهجران ، أحسست لما ولجته أني ولجت جوف مقبرة من المقابر ، فوضع الشمعة التي كان يحملها على الموقد ، وأحنى رأسه وخرج ، وتلفت فرأيت الشمعة قد رسمت ظلالا على الجدران صورها لي الرعب شياطين ذات قرون وأنياب فذهبت إلى الباب أريد الخروج فوجدته مقفلا عليّ ، فلعبت بي ظنون السوء ، وزاد بي الفزع حتى رأيت الجدران تنأى عني ، والمكان يكبر ، ووجدت أن الأرض تدور بي ، فصرخت ، فعاد الخادم الشيخ فقال : مالك ؟

فاستحييت أن أقول له إني خائف . فقلت : ألا تتكرم بإيقاد النار ؟

قال : إن الموقد لم يستعمل من عشرين سنة .

قلت : كيف تهملونه عشرين سنة ؟

قال : لقد أهملنا البهو كله ، منعنا هاني أن ندخله بعدها ؟

قلت : بعد من ؟

فانتبه وقد كان غافلا ، ونظر حوله جزعاً يخاف أن يكون قد

(١) الشيوخة هي الشيخوخة .

سمعه أحد ، ثم قال لى :

— تصبح على خير .

وانحنى وخرج مسرعاً .

وغطى التعب أخيراً على مخاوفى، وخفق رأسى، فجئت الفراش لأنام فإذا عليه أرطال من الغبار ، فنفضته فهبت زوبعة محملة تراباً فأغمضت عينىّ وغصت فى الفراش ، لم أعد أبالى من الونى أن يكون مثواى قبر أو مزبلة أو جحر ثعبان . فلم أكد أغفو حتى سمعت مثل أصوات المدافع، تدوّى فى أذنى فتبدد النوم من عينىّ ثم ضعف الصوت حتى سمعت منه وأنا بين النائم واليقظان : هانى . هانى . ففتحت عينىّ ، فرأيت الفجر قد بدا ، ورأيت الرياح تحرك باب النافذة فيكون منه هذا الصوت ، فأغلقته ، ولكن الصوت لم يبرح يطنّ فى أذنى ينادى : هانى . هانى . فذهبت إلى آخر البهو ، وهو يلاحقنى ، فعاودنى الفزع فصرخت ، حتى سمعنى أهل الدار كلهم ، وأقبل الكهل مغضباً يقول : ما هذا ؟ قلت : هل فى هذه الدار مَن اسمه هانى ؟ ففتح عينه وقال : ولِمَه ؟

— قلت : صوت لا يفتأ ينادى : هانى . هانى .

— قال : سمعته ؟ أنت سمعته ؟ أهو صوت امرأة ؟

وجعل يهزنى كالمجنون .

— قلت : نعم .

فأرسلنى وفتح الباب ، وعدا يخب فى الثلج ...

ولحقته المرأة كأنها تحاول ردّه ، ولكنها وقفت فى الباب ، وألجم الخوف لسانها فلم تنطق ولكن نطقت عيناها ، فأبانتا ، وأطل منهما الحب لحظة ثم ارتد ، كما يرتد عن النور سجين طال عهده بالظلام ... وقرأت فى وجهها صحائف تاريخ لم أفهم منها شيئاً ، فتركتها وأقبلت على المجوز ، وقد انتحت ناحية تبتسم ابتسامة غريبة ، كأنها تقول : أنا أفهم ما لا تفهمون ، وأنتظر من زمان هذا الذى ترونه الآن وتعجبون منه !

فأشرت إليها أسألها .

قالت : سأحدثك . سأشرح لك . إنه تاريخ طويل ختم فى هذه اللحظة . إنها قصة هائلة مشت بأحاديثها الركبان ، وكتبتها الأقلام ، وصورتها (الأفلام) وصارت من روائع الأدب ، لقد مثلت على هذا المسرح قبل أن تمثل فى (السينما)[1] ولكن انتهت الرواية ولم يزح الستار ، فلبث الممثلون حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ؟ وعيون النظار تكاد تأكلهم . تصور ثقل هذه اللحظات وشدتها ، إنها لا تحتمل وإن كانت لحظات قصاراً ، فكيف إن دامت عشرين سنة ...

عشرين سنة ونحن نعيش بلا عمل ، ننتظر أن يرخى الستار على هذه المأساة التى مثلناها ، فلم يزح إلا الآن ...

— قلت : وأين ذهب الرجل ؟

— قالت : ذهب يلبى نداءها .

— قلت : وأين هى التى كانت تناديه ؟

— قالت : لقد ماتت !

— قلت : ماتت ؟ وهل يرجع من مات ؟ !

— قالت : نعم إن فى الوجود قوة ترجع الموتى : إنها قوة الحب . فإن كنت فى شك فاستمع قصتها :

(البقية فى العدد القادم)

على الطنطاوى

(١) مثلت باسم (مرتفعات وزرنج) . (قالوا) وهى محرفة عن (حزرين)

الهندسة القروية بالدقهلية

تقبل عطاءات عن إنشاء مجموعة صحية قروية بناحية ميت غريطه مركز السنبلاوين لغاية ظهر يوم ٣١ يولية سنة ١٩٤٧ وعن إنشاء مجموعة صحية قروية بناحية كفر العنانية مركز أجا لغاية ظهر يوم ٣٢ يولية سنة ١٩٤٧ ويقدم الطلب على ورقة تمغة فئة ثلاثين مليما للحصول على الشروط والمواصفات نظير دفع مبلغ جنيه مصرى واحد بخلاف مائة مليم أجرة البريد عن كل عملية . ويمكن الاطلاع على الرسومات بالادارة الهندسية بالمنصورة ٧٤٩١